14 أكتوبر 13/ مارس/1996م
العدد ٩٧٦٦

16/ مارس/1996م
العدد ٩٧٦٩

عبدالله هادي سبيت

من الطفولة البائسة والنبوغ المبكر إلى الفن والإبداع

2+1

علوي عبدالله طاهر

في منزل بسيط متواضع من المنازل الشعبية في حوطة لحج، ولد الطفل عبدالله هادي سبيت، وذلك مستهل العشرينات من هذا القرن العشرين، او في اواخر العقد الثاني، حيث لم يكن الناس وقتها يعنون بتسجيل المواليد، غير ان وثائقه تقول انه ولد عام ١٩١٩م.

عاش الطفل في كنف والديه الفقيدين غير المنسجمين مع بعضهما فقد كان الأب يشعر وكانه اجبر على الزواج بام الطفل، وكانت هي ايضاً تحس بذلك، وتشعر بعدم ميل زوجها إليها، ومع ذلك لم تعر هذه العملية اي إهتمام، لأنها كانت مضطرة للبقاء في عصمة زوج لا يحبها ولا يميل إليها، لأن ظرف حياتها الصعبة اجبرتها على تحمل بعض متاعبها، خصوصاً بعد وفاة ابيها الذي مات بعد ثلاثة ايام من وصوله إلى الحوطه بصحبتها وهي ما تزل طفلة، فتركها يتيمة ليس لها من راع يرعى شؤونها سوى الله، فقد عطف عليها سبيت جد الطفل الذي عرف بعطفه على الفقراء والمساكين واليتامى، فتولى تربيتها ورعايتها إلى ان وصلت إلى سن النضج، فزوجها لإبنه هادي فانجبت منه هذا الطفل الذي سماه ابوه عبدالله.

وجد الطفل عبدالله هادي سبيت نفسه في وسط اسرة غيرمنسجمة مع بعضها، كانت معه تحس انها مبغوضة من قبل بعض افراد الأسرة فقد كان بعضهم يحملها مسؤولية هيام الأب وعدم إستقراره في بيت الزوجية، وكان الطفل يلاحظ ذلك ويتالم، وكان له اخوان شقيقان احدهما اكبر منه وهو ولد والاخ الأصغر منه وهي بنت، وقيل بانه كانت له اخت كبرى ماتت قبل ان يعرفها.

وكانت عمته اخت ابيه تعيش معهم في نفس البيت وتحشر نفسها في كل صغيرة وكبيرة، وكلما نظرت إلى الطفل يلعب تقول له: انت راسك كبير، وكلما راته هادئاً وصامتاً تقول: يخيل إلى من يستمع إليك انك أصم.

وكان ابوه متديناً، ولكن معاملته لأمه قاسية واسلوب تربيته فيه الكثير من الصرامه.

وقد اثر ذلك على نفسية الطفل، فكان إنطوائياً قلما يلعب مع الأطفال الآخرين، يفضل اللعب لوحده بجريدة من جرائد النخل يضرب بها الجدران، كالضربات التي كان يتلقاها من ابيه، ويردد نفس الألفاظ التي كان يقولها ابوه عندما يضربه، مثل: هات يدك، إقرأ.. إكتب.. الخ.

لم يكن الطفل مشاكساً، بل ودوداً ومتسامحاً، حتى انه اختلف ذات مرة مع أحدهم فاشتبك معه، ودخلا في عراك بالأيدي، فانهزم الطفل، غير انه لم ينفعل فاستمر في هدوئه غير ان الخصم حاول إستفزازه بتهديده بالجنبية التي اشهرها في وجهه مهدداً إياه بالقتل ليثير اعصابه، غير ان الطفل ظل هادئاً، بينما كان الشرر يتطاير من خصمه، ولما لم يجد من الطفل اي رد فعل رمى بالجنبية جانباً، واقبل نحوه يعانقه ويسامحه على مابدر منه، قائلاً: ليتني كنت مثلك هادئاً، لارتحت وارحت.

وكان في عائلة الطفل فتى إسمه ناصر علي سبيت، اي إبن عمه، وكان هذا الشاب نموذجاً فريداً في شباب العائلة يحظى بمكانه خاصة بين افرادها، إذ كان محبوباً من اخي الطفل وعمه سعيد سبيت الذي كان قد تبناه بعد وفاة والده، وكان الطفل يتمنى ان يحظى بالمعاملة الحسنة والإحترام الذي يحظى به إبن عمه، وكان الطفل معجباً بإبن عمه، ولذلك حزن عند وفاته.

وكان جده يصطحبه معه إلى الصلاة في المسجد كل يوم وهو الذي عوده على الصلاة منذ صغره، فاصبح ملازماً للصلاة في حياته لايقطع منها فرضاً ويؤديها في اوقاتها، فنشا نشاة دينية ممتزجة بالأدب والفن.

وكانت عائلة الطفل تسكن إلى جوار فنان موهوب هو الفنان سعد عبدالله، والد الفنان الشهير محمد سعد عبدالله، وكانت اغاني ومعزوفات الفنان سعد عبدالله تشنف أسماع الطفل كل يوم، ويطرب لسماعها، ويحاول تقليدها او ترديدها، حتى اكتسبت اذنه حاسة موسيقية، وصار يهوى الغناء والعزف، ويحضر مجالسها خلسة حتى لايعلم به ابوه، لأنه لم يكن يريده فناناً، ومع الأيام تدرب الطفل على العزف وتعلم الغناء من دون ان يعلم ابوه بذلك، إلى ان صار شاباً يافعاً.

وكانت ظروف الطفل القاسية قد حالت دون تمكينه من التعليم والإستمرار في تلقي العلم، إذ لم يتجاوز في تعليمه الصف الثاني الإبتدائي، ولكنه كان قد اتقن القراءة والكتابة، بحيث اصبح قادراً على تلاوة القرآن الكريم وحفظ ماتيسر من آياته.

ذلك ان والده كان قد هجر امه، ثم طلقها، وكانت امه قبل طلاقها فقدت إبنتها الكبيرة والصغيرة بموتهما، كما فقدت ايضاً اخوه الكبير سعيد، إذ لم يبق في العائلة سواه، وكان ابوه قد اقدم على طلاق امه امامه، وهو مايزل في الثانية عشرة من عمره، فانعكس اثر ذلك على الطفل وعلى حياته المستقبلية، فقد تركت امه البيت او بالأصح طردت منه بعد طلاقها من ابيه إذ ترك الطفل الدراسة مضطراً، ولكنه لم يترك القراءة بل ظل متواصلاً معها، وشغف بقراءة الشعر وسماعه والتغني به.

وقد شهد الطفل منذ مستهل حياته ظروفاً معيشية صعبة جعلته يعتزل الأطفال ولا يشاركهم في لعبهم، لأنه كان يحس بالفارق الإجتماعي بينه وبينهم، خاصة ان كثيراً من اقرانه وزملاء دراسته كانوا من اسر ميسورة الحال، لايستطيع مجاراتهم في المأكل والملبس والمظهر، ونمط الحياة التي يعيشونها، ولذلك كان ينطوي على نفسه، ويتامل في وضعه الإجتماعي البسيط ويقارنه مع أوضاع اطفال آخرين في محيطه من ابناء سلاطين لحج واعيانها، فيزداد تالماً وعزلة وإنطواءاً، لأنه كان يظن ان اقرانه سينفرون منه لثيابه الرثة، وشكله الهزيل الذي رسم الشقاء عليه ملامحه، متناسياً انه طفل موهوب يمتلك قدرات لايمتلكها اقرانه، وربما لهذا السبب تعلق به المرحوم محمد علي الجفري وصادقه وظل ملازماً له منذ الطفولة، فكان كل منهما يبادل الآخر مشاعر الود والوفاء، وبفضل تلك الصداقة تعرف الطفل على علية القوم وكبار رجالات لحج وأمرائها، فقد كانت صلته بمحمد علي الجفري مدخلاً ولج من خلاله إلى عالم الشعر والفن والشهرة.

فقد كان عميد بيت الجفري السيد علوي بن حسن الجفري يشغل منصب المستشار الأول للسلطان، وكان يجتمع في ديوانه عليه القوم بمن فيهم الأمراء والسلطان ذاته، ويحضر جلساتهم بعض الشعراء والأدباء من لحج وخارجها، امثال السيد أحمد قاسم النخلاني مفتي لحج وقتئذٍ، وقد كان أديباً وشاعراً إلى جانب إشتغاله بالفقه والقضاء والشاعر مسرور مبروك، والأمير عبدالله عثمان الفضلي الذي كان صديقاً للأمير أحمد مهدي العبدلي والدزوجة السلطان علي عبدالكريم، بالإضافة إلى الفقيه حسن أفندي والشاعر أحمد باهدى العولقي ومحمد سالم النهدي.. وغيرهم.

ومن هذه الجلسات انجذب الطفل إلى الشعر والفن منذ طفولته، فشغف بسماعه ومال إلى حفظه وقراءته، ورغب في التغني به وترديده في خلوته، فكان يطرب عند سماع المغنين في المجلس

يتغنون باعذب الالحان التي يتبارون في تقديمها في «ديوان» ويتفاعل مع الشعراء حين يتساجلون، ويحاول محاكاتهم ومشاركتهم ولكنه كان يهاب الموقف، فكان يكبح جماح شاعريته خوفاً من ان ينهره أبوه، او يغضب الحضور..

وظل الطفل يلازم المجلس او يتردد عليه بين وقت لآخر مفضلاً ذلك على اللعب، ولما وصل إلى سن الشباب، كان قد قرا دواوين الشاعر احمد شوقي، وأبي الطيب المتنبي، وحفظ بعض قصائدهما، وصار قادراً على التعاطي مع الشعر ونظمه. حتى كان ذات يوم من عام ١٩٣٦م وهو في مجلس الأمير احمد بن علي العبدلي، دارت مساجلة بين مسرور مبروك وحسن افندي سخر فيها مبروك من حسن افندي وهجاه بابيات لاذعة، اثارت إستياء الشاب عبدالله هادي سبيت لأنه كان يحب حسن افندي ويحترمه بإعتباره أستاذه ومربيه، فوجد نفسه مدفوعاً للرد على مسرور مبروك دفاعاً عن حسن افندي، وكانت هذه هي اولى محاولاته الشعرية، غير ان اباه نهره ولم يسمح له بتعاطي الشعر، خوفاً من ان يقول شيئاً يغضب السلطان والأمراء.

وكانت محاولاته الأولى بالشعر العامي الذي كان ياتيه طائعاً من غير تكلف، فقد كان يرتجل بعض قصائده العامية إرتجالاً، عندما ينفعل بموقف معين. اما شعره الفصيح فكانت اولى محاولاته قصيده قالها بمناسبة تهنئة السلطان عبدالكريم فضل العبدلي بعيد الفطر المبارك، حين حضر مع تلاميذه إلى الحفل المقام بالمناسبة فالقى قصيدة أغضبت السلطان عندما قال:

أبوك فضل ونعم الفضل من ملك بلينه نال ملكاً لا بقسوته. وظن السلطان ان الشاب يلقي القصيدة نيابة عن أبيه، فقد كان أبوه من الذين يحضرون مجالس الأدب ولكنه لايتعاطى الشعر، إذ لم يصدق السلطان أن القصائد التي يلقيها إبن هادي هي من نظمه، لذلك كان يعتقل أباه ويحبسه على اثر كل قصيدة يقولها عبدالله هادي سبيت يشعر أن فيها تلميحاً وتعريضاً لشخصه، ولم يكن الولد يعلم إن إحتجاز أبيه في حبس السلطان بسبب تلك القصائد التي كان يلقيها، فقد ظنها السلطان انها لأبيه وليست له، ولما أكد له بعض جلسائه أن الشاب شاعر مجيد، وأن ماسمعه من القصائد هي من نظمه، لم يصدق إلا بعد أن رآه بنفسه في مساجلة شعرية يرتجل فيها الأبيات إرتجالاً.

ومن حينها أعترف السلطان به كشاعر، وتهيات له بعد ذلك الفرص لإبراز مواهبه في مجالي الشعر والغناء، وخرج إلى المجتمع بعدد الدواوين في العامية والفصحى، هي:

١- الدموع الضاحكة.
٢- مع الفجر.
٣- الضامئون إلى الحياة.
٤- قصة الفلاح والأرض.
٥- أناشيد الحياة.
٦- رجوع إلى الله (ثلاثة أجزاء) منها جزء ان تحت الطبع.
٧- ديوان المراثي.
٨- مسرحية الوضوء.

ومع ذلك هو الآن على هامش الحياة، قد نسيه الناس وهو حي فرجع إلى الله مع أن له في مجال الفن الغنائي عشرات من الأغنيات الشهيرة وحوالي ثلاثين لحناً شهيراً، يترنم بها كبار المطربين، العامه صباح ومساء.

وقفة عند مساهماته في الاغنية اليمنية

ذات ليلة من ليالي الخميس المصبحة على الجمعة كان الفنان سعد عبدالله يشدو باغنية مطلعها:

(من معيري قلباً صحيحاً ولو طر فة عين ان كان قلباً يعار.)

وكان عبدالله هادي سبيت يستمع الى المطرب وهو يغني تلك الاغنية فإنجذب الى الصوت وطرب له، وشده العزف والاداء ، وظل يردد الاغنية بصوته، مقلداً سعد عبدالله في ادائه.. وكان ابن هادي جاراً للمطرب مما اتاح له فرصاً للاستماع اليه باستمرار فكانت اغاني سعد عبدالله هي مفتاح دخول ابن هادي ميدان الفن الغنائي الذي صال فيه رجال انسحب منه بهدوء.

لقد رزق الله ابن هادي اذناً موسيقية ، وانعم عليه بحاسة الذوق الموسيقي ، وهي التي ساعدته على التلحين والغناء وكتابة الاغنية بالاسلوب والاداء الذي تميزت به الاغنيات التي الفها اولحنها..

ولو كان ابن هادي قد نشا في بيئة غير البيئة التي نشا فيها لكان من كبار ملحنين الاغنية العربية، ذلك ان اسلوب تربيته ونمط تنشئة حالت دون تفجر مواهبه الفنية رغم ماقد يبدو من ابداع متمثلاً في بعض الاغنيات الشهيرة ، مثل: (سالت العين) و (وابوي انا وابوي) و (والقمركم بايذكرني جبينك ياحبيبي).. وغيرها ذلك ان اباه لم يكن يريده فناناً، ولايريده شاعراً فكان يحول بينه وبين ابراز ابداعاته في المجالين ، الا ان الموهبة فرضت نفسها رغم كل الظروف القاسية التي عاشها.

وكانت اولى محاولات ابن هادي في مجال الغناء - كما ذكرها في سيرته - هي عندما رزق ابن عمه محمد بن محمد سبيت مولوداً ذكراً، وهو ابنه محمود، فاقامت له العائلة حفل ختان حضرها الامير عبده عبدالكريم وهو فنان وملحن مشهور، وكذلك الامير مهدي بن علي احمد ، وقد غنى الاثنان في الحفل، وكان الامير مهدي قد سمع ذات مرة وهو يمر بجانب بيت ابن هادي سمعه وهو يعزف ويغني احدى روائع القمندان فاعجب به، ووقف الى جوار النافذة يستمع اليه، ولما كان الامير مهدي ضمن الحضور في حفل الختان طلب الى ابن هادي ان يغني الا ابن هادي كان متردداً وخائفاً ان يغني امام ابيه ، اذ لم يكن ابوه قد سمعه يغني قبل ذلك، غير انه احرج من الامير ولم يمانع من غناء ابنه فاخذ ابن هادي العود، وعزف فيه، ثم انطلق صوته يردد:«نوحي ياحمامة فوق الغصن نوحي بدري في الصباح» وهي من روائع القمندان الشهيرة.

فنال بذلك اعجاب الحضور بمن فيهم ابوه الذي سمعه لاول مرة، ويشير ابن هادي في مذكراته انه راى الاستاذ صالح عوض دبا، يبكي وهو يستمع اليه عندما كان يعزف ويغني ، وبعد انتهائه من الاغنية علق صالح دبا قائلاً: اني اتمنى ان يقدم هذا العزف والغناء في حفل عام تحضره جماهير غفيرة،

وقد اشار ابن هادي في احدى مقابلاته الصحفية الى ان اولى اغنياته كانت (القمر بايذكرني جبينك) وانه استوحاها من اغنية شهيرة للقمندان مطلعها (ليه الجفاء يامنيتي ليه الجفاء فقد وجد نفسه منجذباً الى تلك الاغنية، بل كان يبكي عندما يسمع الفنان المرحوم صالح عيسى يغنيها.

ومن المعروف ان اغنية (القمر كم بايذكرني) غناها في الاربعينات المطرب احمد يوسف الزبيدي ، وانتشرت انتشاراً كبيراً في عدن ولحج وغيرهما من المناطق، وكانت قد طلعت في اسطوانات وحظيت باعجاب كل من استمع اليها بصوت الزبيدي.

اما اشهر اغانيه على الاطلاق فهي اغنية (سالت العين) التي غناها محمد صالح حمدون، وكان ابن هادي قد اخذ كلماتها من محسن صالح مهدي ، ثم لحنها، وقدمها لابن خلدون، حيث كان قد اعجب بصوته وادائه في احدى الرحلات المدرسية الى قرية (الخداد) وقد اعدت تلك الاغنية لتقدم خصيصاً في حفلات دعم الثورة الجزائرية التي احيتها الرابطة في دار سعد في منتصف الخمسينات.

ومن المعروف ان اغنية (سالت العين) نجحت نجاحاً منقطع النظير ؛ اذ كانت ولادتها مع ظهور اذاعة عدن، فقد سجلتها الاذاعة واذاعتها فما ان سمعها الناس حتى انهالت طلباتهم على الاذاعة التي كانت تسرد مئات الاسماء قبل اذاعة الاغنية في برنامج يطلبه المستمعون.

ومن اغاني ابن هادي الشهيرة اغنية (حبيتك وانا ما اعرفك) التي غناها الفنان احمد يوسف الزبيدي، وقد روى ابن هادي قصة هذه الاغنية في احدى مقابلاته الصحفية بقوله:

«اغنية حبيتك وانا ما اعرفك) هذه العبارة هي تقفيل للاغنية وقد

جاءت من حكاية ملخصها ان شاباً وسيماً دخل الى مخدرة (حفل زواج للرجال) وقد كانت العادة ان النساء يجلسن خلف الستار ليستمعن الى الاغنيات ، وكانت هناك بعض الثقوب في الستار التي تحجبهن عن الرجال، فلما رأت احدى النساء الشاب وهو يدخل الى المخدرة تنهدت وقالت:(حبيتك وانا ماعرفك فتناقل الناس العبارة حتى وصلت الى الشاعر فضاعفها لحناً وكلمات بالاشتراك مع صالح فقيه.

ومن اغنياته الشهيرة ايضاً اغنية (سقى الله روضة الخلان) وقدلقيت رواجاً كبيراً بين الناس الى الحد الذي جعل سائقو السيارات يكتبونها على وجهات سياراتهم في الخمسينات في ظاهرة جديدة لفتت نظر الشاعر لطفي امان فعلق على ذلك قائلاً: (رعاك الله ياعبدالله هادي سبيت اعطيت الناس وعياً حتى جعلتهم يفكرون في هذا..).

وكان بعض من سمعوا تعليقات لطفي قد قالوا : ان الاغنية ليست لعبد الله هادي سبيت وانماهي لصالح فقيه فقال :(اني اشم رائحة عبدالله هادي سبيت فيها وقد اعترف ابن هادي ان القصيدة الكاملة ليست له وانما هي لصالح فقيه، ولكنه عندما لحنها اضاف اليها تلك القفلة.

لقد اكتشف لطفي بحسه المرهف مدرسة عبدالله هادي سبيت الغنائية مما يدل على تميز هذه المدرسة وتفردها باللحن الجميل ، فقد كانت كلمات اغانيه تنساب انسياباً تاتيه طواعية من غير انتقاء، ولكنه يضعها في اماكنها الصحيحة فكان انتقاها انتقاء ، وقد استطاع ابن هادي ان يجعل الكلمات الشائعة في اللهجة اللحجية طوع امره، فاخضعها للفن، وساعد على انتشارها وبقائها حية، ويتجلى ذلك بوضوح في معظم شعره العامي.

ولم تقتصر مساهمات عبدالله هادي سبيت في مجال الفن الغنائي على الاغاني العاطفية، فحسب، بل تعداها الى مجال الاغنية الحماسية، بنوعيها الاجتماعي والسياسي فمن النوع الاول نذكر اغنية (بانجناه) والتي كتبها وهو يسلم للمزارعين ثمن القطن الذي باعوه لادارة الزراعة بلحج باعتباره كان وكيلاً لادارة الزراعة بسلطنة لحج وقتها، وقد لقيت تلك القصيدة رواجاً لانها تحث المزارعين على الاستمرار في انتاج القطن وتحمسهم على العمل بجد ونشاط لزيادة انتاجهم . ومن النوع الثاني نذكر اغنية (ياشاكي السلاح) التي كتبها بمناسبة احتفالات دعم ثورة الجزائر والتي اقيمت في دار سعد.

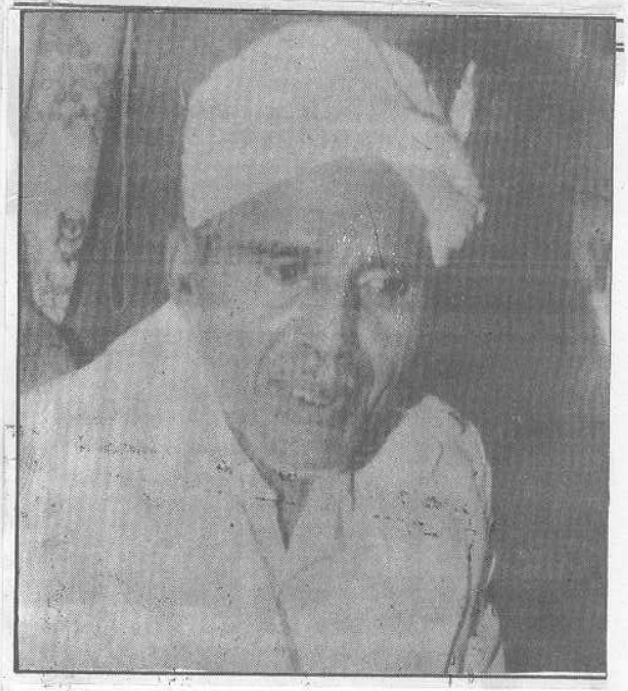

ولا نريد ان نطيل في الحديث عن مساهمة عبدالله هادي سبيت في مجال الاغنية اليمنية على اهميته لان هذه المساهمة لم تستمر بل توقفت في وقت مبكر من حياة الشاعر، اذ لم يتوه معها لعدة عوامل ، جعلته يتخلى تماماً عن مجال المشاركة في تطوير الاغنية اليمنية وينصرف كلية الى الشعر الديني، ويفرغ نفسه للنظم في هذا المجال الذي تميز فيه وابدع، بحيث لايستطيع الذي باحث في الشعر الديني في اليمن المعاصر إن يتجاهل مساهمات الشاعر عبدالله هادي سبيت في هذا المجال الحيوي الهام.

إن الشعر الديني عنده خصب وثري، يحتاج ان يتناوله الباحثون بدراسات جادة، وبحوث اكاديمية متانية لابراز دوافعه وخصائصه وصدقه الفني وارتباطه بتجربة الشاعر، ومزاياه وهذا مانتوي القيام به في المستقبل ان شاء الله تعالى.

واذا كان لابد من الحديث عن العوامل التي صرفت الشاعر عن الشعر الغزلي والحماسي، والتوقف عن كتابه الاغاني اوتلحينها فانه يمكن إرجاع ذلك الى العوامل التالية:

العامل الاول: الاحباط:

لقد واجه الشاعر في حياته العديد من الاحباطات التي جعلته يعتزل الناس ويزهد في الحياة ، ويتصوف . وكانت اولى احباطاته في ايام الطفولة، حين وجد نفسه يعيش في اسرة فقيرة لايكاد دخلها يفي بمتطلبات الحياة الضرورية، محاطة باسر غنية ذات وجاهات اجتماعية كاسرة آل الجفري واسر الامراء في لحج ، وشعوره بان امه مبغوضة من ابيه، وافتقاده الى حنان الامومة وعطف الابوة، ورعاية المجتمع، مما اضطره الى ان يترك الدراسة في سن مبكرة جداً وفي ذلك مافيه من قتل للمواهب وتحطيم للقدرات وتعطيل للابداع ، الى جانب اضطراره للرحيل عن جوطة لحج مسقط راسه عدة مرات، كان اولاها عندما غادرها مع صديقه السلطان علي عبدالكريم بعد ان نحي عن عرش السلطنة وابعد الى عدن على اثر نزاع عائلي على عرش العبادل وكان الشاعر عبدالله هادي سبيت قد ارتبط بصداقة متينة بالسلطان علي عبدالكريم ، عززها احساس الشاعر بالوفاء للسلطان الذي كان له الفضل في اخراجه من دائرة عزلته وانطوائه وثانيها عندما وجد نفسه مضطراً للرحيل عن عدن بمرافقة صديقه الاخ محمد علي الجفري رئيس رابطة ابناء الجنوب بعد ان نفته السلطات البريطانية عن عدن، لعدم رضاها عن مواقفه السياسية، وثالثها عندما اساءت الجبهة القومية معاملته بعد تسلمها للسلطة في الجنوب على اثر جلاء القوات البريطانية عام ١٩٦٧م وتجاهلها لمساهماته في الحركة الوطنية واضطراره للرحيل عن البلد الذي امضى معظم سنين عمره في النضال من اجل قضاياه الوطنية، والتغني بامجاده العظيمة والتعبير عن معاناة مواطنيه البؤساء ، الذين اطربهم باغانيه الجميلة باناشيده الحماسية الرائعة ، ولكنهم تناسوه في محنته وافتروا على وطنيته وتنكروا لنضاله، فتركوه يعاني من متاعب الهجرة ومفارقة الاهل والاصدقاء ، ويتالم من اوضاع البلد المتردية والتي ماكان يتمنى ان يرى اوضاعها تسوء لتصل الى ماوصلت اليه وبسبب ذلك خاب امله في النضال ، وندم على السنوات التي ضاعت من عمره بحثاً مستقبل مشرق ليمن مزدهر وسعيد ، فلم يرى الازدهار ولم يلق السعادة وفي وضع ماساوي كالذي آل اليه مصير شاعرالمبدع عبدالله هادي سبيت ، يفقد الانسان حاسة الانتماء الى الارض والارتباط بالوطن، ويضعف فيه الشعور بمسؤوليته الاجتماعية، فينزوي جانباً معتزلاً الناس وزاهداً في الحياة، لانه لايرى فيها خيراً يرتجى، ولا املاً ينتظر، فليس امامه من سبيل سوى الرجوع الى الله، وهذا هو عنوان ديوانه الاخير، المكرس كله للشعر الديني.

العامل الثاني: نشأته الدينية:

لقد نشا عبدالله هادي سبيت نشاة دينية ، وتزود منذ طفولته بثقافة اسلامية صرفه صرفته عن الانزلاق في ملذات الحياة والانجرار وراء شهواتها، فقد ادى فريضة في موسم ١٣٧٧هـ اذ سافر الى الحج عام ١٩٥٧م وعمره وقتئذ لم يصل الى الاربعين بعد، فعلى الرغم من مساهماته المتميزة في مجال الفن الغنائي، فانه ظل مشدوداً الى ثقافته الدينية، فلم يسمح للفن ان يصرفه عن العبادة ،مع ان كثيراً من الذين اشتغلوا فيه ابتعدوا قليلاً اوكثيراً عن العبادة بينما شاعرنا ظل ملازماً لها حتى وهو يتعاطى الفن، ولما لم يجد في الفن الغنائي متعتة المادية، رجع الى الله ليجد بالقرب منه متعته الروحية ، فاخذ ينحو في حياته منحى الصوفية، مكتفياً براتب زهيد لايتعدى اربعة الاف ريال، وبدرجة وظيفية لاتزيد عن درجة فراش في ادنى السلم الوظيفي ، بعد عمر يزيد عن خمسة وسبعين عاماً، وعطاء متميز في الابداع الادبي والفني لانظير له سيظل خالداً مدى الدهر يذكر الناس برجل نقي طاهر يمد يده لأحد، ولم يبع نفسه في سوق النخاسة، ليكون من اصحاب الدرجات الوظيفية العالية في الدنيا، بل فضل الرجوع الى الله ليكون من اصحاب الدرجات الرفيعة في الدنيا والاخرة.

14 أكتوبر
الأربعاء 26 نوفمبر 2008 م - العدد (14304) السنة الأربعون

نبرة الحزن و الكآبة والبكاء في شعر إبن هادي

إذا كان عامة الناس قد عرفوا عبدالله هادي سبيت - رحمه الله - مدندناً طروباً في بعض أغانيه وأناشيده التي ترنم بها كبار المطربين في مثل قوله:

أشرقي يا شمس في أرض العروبة إنها أرض الجلال
قد صحا المارد من يأمن وثوبه فهو قهار المحال
إنه الوعي المنير باتيحتل الضمير
شعلة الله القدير

(الظامئون إلى الحياة، ص17)
وإذا كانوا قد عرفوه بشوشاً فرحاً متفائلاً بالحياة في مثل قوله :

قم فإن الديك صاحا معلناً عيشوا صباحا
انهضوا فالليل راحا انهضوا تلقوا فلاحا

وافلحوا الحقل فإن الحقل كنز الأمنيات
ينزل الجو عليكم مطراً من رغبات
وانهضوا جمعاً وسيروا في اعتزاز وثبات
وثبوا، فالخير كل الخير رهن الوثبات

فالواقع أن ذلك الطرب والتفاؤل كان في مرحلة الصبا والشباب، حين أملت عليه الظروف أن يلامس الأوتار منشداً حماسياً ومطرباً عاطفياً وهي فترة عابرة في حياته، بينما معظم حياته أمضاها شريداً معذباً، لم يذق فيها لذة الحياة إلا قليلاً، ولم يشعر بالسعادة إلا برهة من الزمن، ذلك أنه أسهم في الحركة الوطنية إلى الحد الذي اضطر فيه إلى مغادرة بلاده ليبثها من بعيد حنينه وحبه وأشواقه، وبكاءه، وأحزانه.

ولذا فإن نبرة الحزن واضحة في معظم شعره، فكان يبكي بدموع حرى كاوية، ولاسيما حينما كان يودع حبيباً أو عزيزاً أو رفيق نضال، أو شريك حياة، فالدموع الغزيرة التي سالت من عيونه في أيام البؤس والشقاء والنضال، لا تعادلها دموع، لأن الحياة التي عاشها تستدعي هذا البكاء، ولكنه بكاء ممزوج بالإيمان الصادق بالله، الذي لم يغب عن وجدانه لحظة.

وليس غريباً أن يسمي أبن هادي أول دواوينه (الدموع الضاحكة) وهو الصادر عن دار الجنوب العربي عام 1953م فهو يذرف الدموع منذ نشأته، ولكنه أراد أن يرى دموعه ضاحكة في بيئة مليئة بالمنغصات والمحبطات، ولأنه فنان، فقد أراد أن يبتسم ويرسم البهجة والفرحة للآخرين، بدافع من فطرته الإنسانية التي تحب الحياة وتغني لها، ولذلك قدم (أناشيد الحياة) - وهو أحد دواوينه ليكون بمثابة نبع يستقي منه (الظامئون إلى الحياة) - وهو أيضاً أحد دواوينه - ليفرح برؤية أحبائه وأصدقائه وناسه، وقد صحوا في فجر يوم باسم، ليعيشوا حياة جديدة، ملؤها السعادة والبهجة، فعم وإياهم (مع الفجر) - وهو أحد دواوينه - ليسمعهم ومضة من ومضاته التي يصفها بقوله :

إنها ومضة آمالي وإشعاع رجائي
إنها نفحة أحلامي على عود هنائي
إنها جوهر دنياي وذرات هوائي
فلكم حلقت في أجوائها عالي الإباء
* * *
حينما يسطع في أجوائها نور الحياة
فهناك البعث يسري بين طيات الرفات
وهناك الفن صداح بحلو النغمات
نفحات تفجر الإحساس من قلب الصفاة
إنها اليقظة في أكنافها شط النجاة.

لقد ولد ابن هادي ليكون فناناً بالفطرة، وسار الشعر في وجدانه منذ الطفولة، فهو كما خلقه الله شاعر موهوب، غير أن ظروف حياته البائسة حالت دون تنمية موهبته، ذلك أنه لم ينل من الناس حظاً وافراً، فأقصى ما ناله من التعليم هو المرحلة الابتدائية ومع ذلك ظهرت مواهبه الشعرية في سن مبكرة، ولولا ظروف حياته القاسية لكان شاعراً متميزاً في فنه ولغته وصوره، النبي كان فيها متواضعاً، ومع ذلك لا ينكر أنه :

مبدع قد قطع الألحان في أهاته
تائه قد أسكن الأكوان في طياته
حالم يستقطر الأحلام من أناته
* * *
في الروابي منه روح وصفاء
هو في الروض ظلال جمعت صرعى الشقاء
في جنان الخلد يحيا دون حقد أو جفاء
* * *
يجرع البؤس ولكن في إباء وشمم
هو كالسحب ولكن ذوبه دمع ودم
هو سحر يرسل الأنوار من قلب القلم.

فهو شاعر موهوب، ولد فناناً والفنان بطبعه شديد الحساسية يتأثر - كما قيل - بالهواء والكلمة العابرة والفكرة الرصينة، فمحصوله الثقافي متواضع، فلم يتلق علومه في الجامعات، بل تلقاها في مدرسة الحياة التي عركته وعركها، ولشغفه بالعلم في بيئة يقل فيها العلماء عمد إلى التثقيف الذاتي، ومجالسة العلماء، وحضور مجالسهم، فالتقى عدداً كبيراً من علماء لحج وعدن وحضرموت، وأخذ منهم وتأثر بهم، واغترف من علومهم، كما التقى عدداً من أمراء لحج وسلاطينها، وكبار رجالاتها، وارتبط بصداقات مع بعضهم واكتوى معهم بنيران صراعاتهم، وقاسى من ظروف النفي والتشرد مثلهم من جراء الصراعات السياسية التي شهدتها المنطقة في الخمسينات والستينات وما بعدها من القرن الفائت. وكان يرى أصدقاءه وأحباءه ورفاق دربه في الكفاح يتساقطون في أتون الصراعات السياسية، وكان يرى كذلك شيوخه وأساتذته ورواد الفكر والتنوير في بلده يموتون واحداً بعد الآخر، في أحلك الظروف وأصعبها، وطفا على سطح الحياة أراذل القوم وأجهلهم، فوجد نفسه منبوذاً لا ينظر إليه ولا يكترث بوجوده، بعد أن كان يشار إليه بالبنان، ويتغنى المنشدون بأغانيه، وفي واقع سيء كهذا لم يبق أمامه سوى بث الشكوى والألم لما آل إليه حاله وحال الوطن. فيقول :

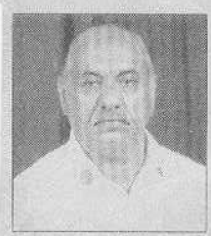

د. علوي عبدالله طاهر

يا من أمات الفؤاد مني أما من قيامة؟
أنا الذي أسمع الأيام نوح الحمامة
أشكو جحيم الجوى هجري، وربك ظلامه
والله لولا الدمع أضحى علامة
نظرة تشق الكفن
أشكو صروف الزمن
إني شهيد الشجن
ما بات سري علن

ولهذا السبب وغيره، اختفت من شعره ملامح البسمة والابتهاج، وبرزت فيه نبرة الحزن والكآبة والبكاء، وغلب على شعره قصائد الرثاء الحزينة، وأكثرها في ديوانه، (رجوعاً إلى الله) لقد كان الرثاء غرضاً رئيسياً من بين أغراض شعر عبدالله هادي سبيت، فأكثر من النظم فيه لكثرة المناسبات والمواقف الحزينة التي مر بها في حياته، فهو لم يترك مناسبة صغيرة أو كبيرة إلا ونظم فيها شعراً حزيناً.

ويمكن تقسيم قصائد الرثاء لدى ابن هادي إلى ثلاثة أقسام : ندباً، وتأبيناً، وعزاء. وقد جعل الندب محصوراً في الأهل والأقارب، وفي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وخص التأبين للمواقف الرسمية فخص به القادة والساسة والعلماء والعظماء، وجعل العزاء يجسد حقيقة الموت، وفلسفة الوجود والعدم والخلود، ولهذا السبب غلب على شعره الاتجاه الديني، في محاولة منه للتكفير عن مرحلة عاش فيها حياته طولاً وعرضاً، ولكنه بعدها رجع إلى الله رجوع المؤمن الصادق، ولذلك لا غرابة أن يسمي ثلاثة من دواوينه بتسمية واحدة وهي (رجوعاً إلى الله) وهي الدواوين التي كان يزهو بها أكثر من سواها من الدواوين. وقد خصص الجزء الأخير من هذه الدواوين للمراثي.

وأول ما يستوقفنا في هذا الديوان قصيدة قالها من وحي وقوفه أمام قبر الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان يؤدي العمرة في شهر رجب عام 1404هـ، قال فيها :

قاصداً قد جئت يا سندي ... أنت بعد الله معتمدي
لا أريد الخير لي ولأهلي وحدهم، ... كلا ولا ولدي
بل لكل المسلمين وقد ... أصبحوا في قبضة الأسد
ها هنا جنب الضريح أرى ... أن روحي فارقت جسدي
كيف لا والنوح يصدر من ... كل قلب لاذ بالأحد
ودموع النازحين سقت ... زهرة الشهداء في أحد
(رجوعاً إلى الله، ص4).

وتتصدر قصائد الرثاء قصيدة قالها في رثاء الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية، كان قد ألقاها في مسجد العيدروس في الشيخ عثمان ليلة ختم دروس القرآن الكريم على روحه بعد مضي ثلاثة أيام على وفاته، قال فيها :

أعبد العزيز اللابس التاج بعد أن
له خفقت قبل القلوب المدافع
يقولون أنفقت الخزائن مسرفاً
وبين الحمى شاك وباك وجائع
فأمسيت تعطي من له الله معطياً
وهيهات تعطي من له الله مانع
وتالله لو أنفقت منا لحومنا
لخير لنا من موصل وهو قاطع
يدس سموم البين بين صفوفنا
فكل على نار المذلة قابع
(رجوعاً إلى الله، ص8)

وشاءت الأقدار القاسية أن تعصف بقطب من أقطاب الفن والأدب وصديق الشاعر وجليسه ذلكم هو الأمير أحمد فضل بن علي العبدلي (القمندان) ولفداحة الرزء وهول المصاب، فجع ابن هادي كغيره من الناس الذين حزنوا لفقد ينبوع من ينابيع الفن والأدب، فبكى بكاءً مراً، ولبس السواد وفاض أسىً حزناً عليه، ومما قاله فيه :

أي خطب هذا الذي هز ركن الأرض فأرتاع عربه والأعاجم
أيها الزارع الموفق، إن الغصن تبكي عليه تلك الغمائم
كيف لا والنسيم ذاك العليل المذهب الحزن لن يثير النسائم
أيها القائد المحنك إن الجيش فوضى وحوله الموت حائم
كيف وليت والليالي حبالى ... بالخطوب الجسام والجو قاتم
فإلى من أسلمت أمر القوافي ... وإلى من وكلت أمر الصوارم
خسرت لحج فيك شهماً فتياً ... ضم في شخصه يراعاً وصارم
قد رفعنا بك الجباه افتخاراً ... يوم نلت الوسام والدهر راغم
(رجوعاً إلى الله، ص13)

وشاءت الأقدار كذلك أن يموت السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج السابق، فادلهمت الأجواء أمام ابن هادي، لأنه فقد الملجأ الذي كان يهرع إليه، واضطرمت نفسه، وتضاربت الأفكار في رأسه، واعتملت أحاسيسه وتباينت عواطفه، وهو يتلهف لسلطان جديد ارتبط به برباط الحب والصداقة، وهو السلطان علي عبد الكريم. فقال :

جاءت على يدك الدنيا تصافينا ... فما لها قلبت ميزانها فينا
عبد الكريم فقدت الحلم آونة ... من حين ما محسن جافى الأذلينا
ذاك الذي شاد للأجيال مدرسة ... لما تزل تمنح الآباء تطمينا
وبالقمندان كم ذا صلت آونة ... كذا العلي ابن علوي المضامينا
بهم كما بك قويتم مراسلنا ... جزاكم الله عنا الخير آمينا
(رجوعاً إلى الله، ص14)

كما فجع ابن هادي بموت أستاذه العلامة احمد بن قاسم النخلاني مفتي الديار اللحجية وقتذاك، وكان معجباً به، ومشدوداً إلى خطبه ودروسه ومواعظه، فقال في رثائه :

أبا علي لقد أديت ما وجبا ... حتى رفعت به عن فكرنا الحجبا
لو كان للمنبر المفجوع عاطفة ... لذوب النفس من أجفانه سحبا
كم من مواعظ قد أجريت سلسلها ... وكم علوم لها كرمت ذا الخشبا
كانت تطوف به أرواحنا زمناً ... كي تنهل الذكر والمأثور والخطبا
من لي بتلك اليد البيضاء كم قطفت ... من روضة العلم آمالاً لمن طلبا
من لي بمثلك في علم ومعرفة ... لم يحرم الشعر من عليائه نسبا
كم كنت تمنحني السمع الكريم وكم ... فجرت من روحي الإيمان والأدبا
هويت فيك التقى والخير فانطلقت ... نفسي تحطم في الشك والريبا
منحتني الزهد في الدنيا وها أنذا ... قد أصبح اليوم عندي صدقها كذبا
فيك ارتشفت من الإيمان ما طهرت ... روحي به فبلغت الشأو والأدبا
فيك التقينا بأقطاب الحديث ... فعشنا والبخاري ها هنا حقبا
وكم وكم كنت تلقي في مسامعنا ... قول الرسول فتسقينا بماء عذبا
والترمذي والنسائي وابن ماجه مع ... أبي هريرة والزهري ومن صحبا.
(رجوعاً إلى الله، ص17)

يبدو أن الشاعر كان قد تتلمذ على يد العلامة أحمد النخلاني، وقد صرح بذلك في هذه المرثية، والتي يعترف فيها بفضله عليه، وانه كان السبب في ثقافته الدينية وتدينه.

وكثيرة هي قصائد الهجاء عند ابن هادي، فما أن كان يهوي نجم من نجوم العلم والأدب والثقافة والسياسة في اليمن عموما ولحج خصوصا فإنه يتأثر بذلك أيما تأثر، وسرعان ما يشرع في نظم قصيدة في رثائه معبراً عما يختلج في نفسه من مشاعر صادقة تجاهه، وكثيراً ما كان يغتنم ليلة ختم القرآن الذي جرت العادة إقامته على روح الفقيد، فيستغلها لإلقاء مرثيته على جموع الحضور في المسجد، ومن ذلك مرثيته التي ألقاها في ليلة ختم الدرس على روح الحبيب علوي بن عبدالله الشاطري، مفتي الديار الحضرمية الذي كان قد توفي عام 1386هـ، قال فيها :

أحبتي إن هذا القلب قد خفقت ... دقاته فهو في محرابه قبعا
أحبتي إن دمعي لم يعد أبداً ... من مقلتي إنه من خافقي نبعا
يا وارثي أنبياء الله إنكم ... في هذه الدار والأخرى لنا شفعاء
لا تتركونا فإن الليل داهمنا ... وساقها ظلمات ضاعفت بدعا
لا تتركونا فأنتم حصدنا وبكم ... كم أذهب الله عنا الخوف والفزعا
يا من جعلتم بيوت الله عامرة ... بالذكر لا تتركونا، بادروا بدعاء
في كل تسبيحة منكم لنا أمل ... وكل تحميدة كم أذهبت جزعا
وكل تكبيرة كم أيقظت مهجاً ... وكم بلاء بها عن أرضنا انقطعا
لله يا سادتي دهر مضى ولنا ... معكم لحظت أحيت الجمعا
إذا انتظمنا صفوفاً أمنا رجل ... منكم فهذب فينا كل ما انطبعا
يا سادتي يا رجال الدين ها قلمي ... يعود بي نحو ماض كم لنا شفعا
ما خر نجم إلا وأفهمني ... بأن ربي للقرآن قد رفعا.

ويبدو جلياً مدى حب الشاعر ابن هادي لآل البيت ومدى تعلقه بهم، وإعجابه بالعلماء منهم، ويتجلى ذلك بوضوح في مرثيته التي قالها في رثاء منصب العيدروس السيد عبدالله بن عبدالله العيدروس والتي ألقاها ليلة ختم القرآن على روحه، والذي أقيم في مسجد العيدروس بعدن صلاة العشاء ليلة الاثنين 14 محرم 1390هـ 1970م، قال فيها :

لئن صببت مذاب القلب تأبينا
لما بلغت مقامات المحبينا
يا آل بيت رسول الله إن يدي
تخط لكن بدمع قطر العينا
فليقرأ الناس نفساً ذوبت حزناً
على الأحبة من قد آزروا الدنيا
وليعلموا أنني لم أوف حقهم
بقطرة من بحار أصبحت دينا
آل النبي : إذا ما الليل غيبنا
كنتم شموساً أضاءت من مصلينا
عشتم تنادون رباً بالدعاء لنا
وما تزالون، فادعوا الله يكفينا
يا آل بيت رسول ما ليدي
تكاد تنزع فكري الآن تأبينا
(رجوعاً إلى الله، ص32).

وفي القصيدة التي القاها ليلة ختم دروس القرآن الكريم على روح الشيخ العلامة محمد بن سالم البيحاني في ليلة الاثنين 18 ذي الحجة 1392هـ، 1972م. يظهر جلياً مدى تقدير ابن هادي سبيت لعلماء الدين ومدى حبه لهم وعلى رأسهم الشيخ البيحاني الذي كان موته فاجعة لابن هادي، وقد عبر عن ذلك في قوله في رثاء البيحاني :

نعم، سيبكيك منا كل وجدان
يا ماجداً عاش طول العمر إنساني
كم مفجعات تحداها فما حفلت
لوقعها شعرة ما بين أجفان
لكنه قط لن يقوى على نبأ
أراه عطل في مُجواي تبياني
يا أيها المنبر المفجوع مالك قط
فجرت صمتك من أعماق كيواني
تلك المواعظ لازالت مهيأة
هذا وذاك لتحرير لأوطان
ما قال قال رسول الله عالمنا
إلا ليطمس آثاراً لشيطان
يا منبر المسجد المعمور إنك لا
زلت المردد آيات لقرآن

وقد عدد في القصيدة مآثر الشيخ البيحاني ومناقبه، وذكر تحديداً بعض المواقف التي وقفها الشيخ البيحاني ضد مثيري الفتن ودعاة الاقتتال، كوقوفه بثبات ضد الحرب الأهلية التي اشتعلت في عدن قبيل الاستقلال بين الثوار، فقال :

لازال صوت فقيد الكل مرتفعاً
هيهات يطغى عليه صوت فنان
ولا دعايات من باتت حناجرهم
تذيع فسقاً وفحشاءاً بإعلان
فحينما اقتتل الإخوان كان له الدور الطليعي في الإقدام لا الثاني
وكان شوكة ميزان لكم حفظت
عدلاً يحقق تقديرات أوزان
وفوهات سلاح القوم مشهرة
تصادر الهمس تمزيقاً لجثمان
وفي الشوارع أشلاء مبعثرة
ترضي الذي كادنا كيداً بإمعان

وفي القصيدة التي ألقاها بمسجد الشيخ عبدالله بعدن، بعد ختم القرآن الكريم على روح الشيخ المرحوم حسن سعيد ريحاني، مفتي الديار الشافعية ومرجع العلماء في مكة المكرمة، وألقيت مساء يوم الجمعة ليلة السبت 4 محرم 1392هـ، 1972م، ذكر إسهامات المرثي في التعليم والتوجيه الديني، قال فيها :

يا مرجع العلماء الفر مالك قد
غيبت نورك عن وجه الملبينا
جاؤوا كما شاء مولاهم وخالقهم
بدعوة دونت من قبل تدوينا
ليشهدوها بأعماق مهيئة
منافعاً ضمنت عزاً وتمكينا
كم جلسة لك في البيت الحرام شرحت الدرس فيها لطلاب ميامينا
وقلت قال رسول الله فانفتحت
مدارك وتلقى العلم (واعونا)

وفي القصيدة يبدو الشاعر متعلقاً بعلماء الدين، ومعترفاً لهم بالفضل في تدينه، متحسراً على ما مضى من حياته، وذلك في قوله :

ما أضيع العمر إن لم يمض مقترباً
بنا من الله من لازال يحمينا
فالغوث يا علماء الدين ها هي ذي
ذنوبنا بدأت بالفعل تخفينا
وها هو الشر من كل الجهات بدا
محاصراً إنه قد كاد يردينا

والاتجاه الديني واضح لدى الشاعر ابن هادي سواءً في قصائده الرثاء – كما رأينا – أو في غيرها من القصائد التي قالها في مناسبات المولد النبوي الشريف، وذكر الهجرة، ونحوهما. وكان الشاعر يتخذ من المناسبة الدينية سلماً للوصول إلى غرضه، سواءً كان الغرض سياسياً أو اجتماعياً، فكانت المناسبات وسيلته للخوض في القضايا الوطنية والاجتماعية، ومن ذلك قصيدة قالها بمناسبة العام الهجري، عرج فيها إلى حب الوطن، قال فيها :

وطني اتخذتك في الحياة محجتي
وجعلت منك يراعتي وغنائي
ونفخت روحي في خلاء قد خلا
حتى من الأصداء والأنحاء
أبكي وحولي ضاحك مستبشر
وأذيب فيك مدامعي برثائي
جف المداد فلم أجد ليراعتي
إلا سحائب شقوتي وبلائي
حاشاي أن أحيا حياة مذلة
وأعيش عيشة ميت الأحياء

وكقوله في قصيدة ألقاها في ذكرى المولد النبوي الشريف عرج فيها إلى قضية فلسطين. قال فيها :

فيا أيها القدس المنيع بكتلة
تضج بها الصحراء روعاً وتصخب
ويا مسجداً رجع الزئير أذانه
وقرآنه التكبير والحق مذهب
لئن نال منك الطامعون فإنما
أقيم لهم في كف عزريل منصب

وكان ابن هادي يغتنم المناسبات على اختلاف أنواعها ليبث فيها شؤونه وشجونه، ويبسط فيها قضايا الوطن المحتل وهموم الأمة المقهورة، حتى قصائد الرثاء لا تخلو من عرض لبعض القضايا القومية والوطنية والاجتماعية، بما يوحي أنه كان قلقاً على الأمة، ومنزعجاً مما آلت إليه الأوضاع في بلاد المسلمين، وهو ما جعل الحزن والبكاء ملازمة لحياته، وقد عبر عنها بقوله :

فاشهد بربك يا وليد بأنني
قد صغت من نفسي الحزينة عودا
ما أن تثور بي القريحة لحظة
إلا لتصهر قلبي المنكودا
فعصرت من كرم الشقاء مدامتي
ولثمت في الشوك الأليم ورودا
وقنعت من دنياي بالكأس التي
فاضت علي مضاضة وصدودا

ولم يكن ابن هادي حزيناً فقط بل كان يائساً كذلك، وهو ما أسلمه أخيراً إلى أن يحيا حياة التصوف معبراً عن ذلك بقوله :

فيا من دعاني فاستجابت جوارحي
وقد لفني اليأس المميت بأكفان

وأكثر ما يتجلى حزن ابن هادي ويأسه في الأبيات الآتية :

أيها الذائب يا قلبي الحزين
إن عيش الحر شجو وحنين
أيها الشادي بأنغام الأسى
مضه اليأس وأضناه الحنين
ينشد الآمال والدهر عفا
رسمها البالي بقلب لا يلين
ذهب الأمس على علاته
فأتى اليوم فأرضى الشامتين
وبدت أعلام آتيك فلا
تبتئس، فالله يجزي الصابرين
أي جو لم تلبده الغيوم
أي قلب لم يذق كأس الهموم؟
أي طود لم تفجره الأسى
وهو من طاول أبعاد النجوم؟
أي حر بات في نعمائه
آمناً من سطوة الدهر المظلوم؟
فاعتبر يا قلب بالماضي فكم
في حياة الكون من شتى العلوم
إنها الدنيا، وهذا دأبها
نعمة الأحرار فيها لن تدوم.